محاضرة رقم / 22

توماس هوبز (1588-1679م)

هو فيلسوف إنجليزي, كان ابناً لقس. ولد قبل أوانه؛ بسبب خوف أمه من إحدى الغزوات على بلادها, فقال: أنا والخوف توأمان. وقد عزا البعض , لذلك الكثير من أقوال هوبز, في إنّها كانت نتاجا لهذا الخوف من البداية. أكمل دراسته بفضل عمه, وتعلم اللاتينية واليونانيّة. وتواصل هوبز مع رجال نبلاء عدة؛ ورجال سياسة آخرين, خدم البعض منهم وعلمهم. كان؛ في تلك الفترة؛ قد تعرف على بيكون, وإتصل بغاليلو, وعرف بكونه واحداً من أهم فلاسفة القرن السابع عشر؛ واشتهر في القانون والفلسفة والسّياسة. ترك بريطانيا على إثر الاضطرابات التي حصلتْ فيها, ضد الحكم المطلق, وخوفاً من أن يصيبه منها شيء» لأنّه كان مناصراً له, ذهب إلى فرنسا والتقى هنالك بديكارت. كان في تلك الفترة قد أتم كتابه:

"مبادئ القانون الطبيعي والسّياسي"؛ ثم نشر كتاباً يعالج الموضوعات نفسها بعنوان: "العناصر الفلسفيّة للمواطن" أو "في المواطن". وفي عام 1651 وضع كتابه الأهم وهو: "التنين" أو "اللفياثان" (120ه»1)"'. الذي تضمن جل فلسفته السّياسيّة والقانونيّة. في فترة عودته إلى إنكلترا. وبعد مدة, وفي إحدى الرحلات مع كونت ديوفونشاير لم يتحمل اتمامها, لطولها, تعب منها ومات. كان مناهضاً للسلطة الكنسيّة, ومتمسكاً بآراءه الفلسفيّة؛ ذلك ماجعل البعض يشن عليه حرباً بعد مماته. تأثر بالنظريّة السّياسيّة لمكيافللي, وتشابه مع بودان في نظرية الحكم المطلق.

ويرى البعض أن معالجة هوبز في الفلسفة السّياسيّة تأخذ طابعاً مزدوجاً في النظريّة والعمليّة؛ فهي:

1- وضعت؛ ولأول مرة؛ الفلسفة السّياسيّة والأخلاقيّة على معايير علميّة وواقعيّة.
2- وهي جاءت لتأسيس سلام مدني ومحبة ,عن طريق إعداد البشرية للإيفاء بواجباتها المدنية.

* الإنسان والقانون في حالة الطبيعة:-

حاول هوبز أن يستكشف الطبيعة الإنسانيّة؛ لما لها من دور في التأسيس للنظام السّياسيّ ونوعه. ويقرر أن الناس بطبعهم متساوون في الحقوق. لكن "من هذه المساواة في القدرة تنشأ مساواة في الأمل بتحقيق الغايات. لذلك إذا رغب شخصان بشيء واحد, لايقدران على الاستمتاع به كلاهما, فإنّهما يصبحان عدوين؛ وفي طريقهما إلى غايتهما... يحاول كل واحد منهما تدمير أو اخضاع الآخر. وهنا تبدأ المشكلة في وصف الحالة المفارقة, أو الخاليّة. من السّلطة السّياسيّة, فهي حالة تنازع منذ بدء الإرادة؛ ومن ثم الصراع عليها حتى النيل من أحد المتصارعين والانتصار للآخر. ولذلك يقول هوبز: "إن الناس لا يستمتعون برفقة الآخرين, ما لم تكن هناك قوة قادرة على ترهيبهم جميعاً.ويجد هوبز ثلاثة أسباب للصراع في هذه الحالة؛ وهي:

1- المنافسة: وهي تجعل البشر يغزون لتحقيق الكسب. وفيها يتصارعون من أجل جعل أنفسهم سادة على الآخرين.

2- عدم الثقة: وهو يجعلهم يغزون من أجل الأمن. وفي هذا النوع يتصارعون من أجل الدفاع عن أنفسهم.

3- المجد: وهو يجعلهم يغزون من أجل السمعة. وفي هذا الدافع, للصراع؛ نجدهم يتقاتلون من أجل أمور تافهة.

إذن؛ في الوقت الذي يعيش الناس دون سلطة تسيطر, عليهم وترهبهم؛ سيكونون في " الحالة التي تسمى حرباً؛ وهي حرب بين كل إنسان وكل إنسان آخر, وقد يعترض البعض على أن حالة الحرب هذه ليست واقعيّة؛ بحيث أنّها غير موجودة في كل زمان وفي كل مجتمع, ويعلق هوبز, عليهم, بأنّها حقاً لا توجد في الأصل؛ في كل مجتمع؛ لكنها موجودة في كثير من المجتمعات؛ ولاسيّما في أمريكا بسيطرة العوائل المتوحشة؛ آنذاك. كما أنّها يمكن أنْ تكون موجردة حينما تزول الدولة, ولا تكون هنالك قوة مشتركة يخشاها الجميع. بل حتى أكثر الملوك, وفي أغلب العصور, يتنازعون ويتصارعون وفق المنطق نفسه: في

المحاولة لإزالة الآخر. وهي وضعيّة حرب. ويتمم هوبز رأيه في هذا الوضوع بقوله: "ينتج عن حرب كل إنسان ضد كل إنسان؛ أن لاشيء يمكن أن يكون ظالماً. إن أفكار الصواب

والخطأ, والعدل والظلم لا مكان لها هنا, حيث لا سلطة مشتركة ولا وجود للقانون. وحيث لا قانون ولا ظلم. إن القوة والغش هما الفضيلتان المشتركتان... وأنَّهُ لا ملكيّة ولا سلطة؛ ولا تمييز بين ما هو لي وما هو لك. ولكن هوبز لا يقف عند وصف الحالة الطبيعيّة هذه. بل يحاول أن يتجاوزها, من داخلها, عن طريق الميل الموجود داخل الإنسان إلى السلام, ذلك السلام الذي لا يمكن أن يكون دونما الخوف من الموت؛ والرغبة في الأشياء الضروريّة لحياة هانئة؛ والأمل بالحصول عليها؛ وهذه هي قوانين الطبيعة التي تضبط الحقوق فيها. فالحق يتعلق بحرية فعل كل إنسان ما يريد وما يشعر به أنه له بينما القانون هو الذي يحد تلك الحقوق» ويجعل لها مساراً لا تتعداه.

ويحاول هوبز أن يحدد بعض القوانين التي تتحكم في الوضعيّة الإنسانّية في حالة الطبيعة ومنها:

1- **قانون النزوع نحو السلام:** وهو القانون الذي يعتمد العقل للخلاص من حالة الفوضى والحرب في الوضع الطبيعي الخالي من السّلطة؛ تجاه تحقيق السلام.

2- **قانون امكان التنازل:** وهو القانون الذي يجعل الناس في حالة الطبيعة مستعدين للتنازل عن حقوقهم في بعض الأشياء بالقدر الذي يمكن تحقيق السلام معه. فعلى كل الأفراد السعي من أجل القضاء على التنازع, عبر فعل ما يتطلبه فعل الآخرين له. وهو قانون الإنجيل. المسمى بقانون(كل البشر).

3- **قانون الايفاء بالعهود:** وهو الذي يلزم الناس بالالتزام تجاه أي عهد أو تفويض جرى بين أفراد الحالة الطبيعيّة؛ من أجل السلام البشري؛ ولأن الكلمات الجوفاء لا تبقينا إلاّ في حالة حرب دائمة. ومن هنا تشأ العدالة وأصلها. لأنَّه حين يتم ابرام العهود والالتزام بما يكون هنالك معنى للظلم والعدل. إذ الأول يعني عدم انجاز العهود, والثانِي تحقيقها. ويسمى كذلك بقانون حفظ الثقة.

4- **قانون العرفان بالجميل:** ويقصد منه أن أي إنسان يحصل على فائدة ماء يجب أن يشعر المعطي لها بأنه لن يندم لإرادته الخيّرة هذه. ويعد انتهاك هذا القانون نكراناً للجميل.

5- **- قانون الكياسة:** وهو القانون الذي يتطلب من الإنسان أن يسعى؛ ويفعل ما بوسعه من أجل أن يكون مقبولاً من الآخرين. وهو القانون الذي يسمح بأن نعيش معا في المجتمع؛ وبنوع من الكفاءة والجدارة,ومخالفة هذا القانون تعني أن الإنسان يصبح لا اجتماعيّا وعنيدا وهجومًيا". وتلك مقدمات للحرب.

6- **قانون الصفح:** وهو القانون الذي يدفع الإنسان للعفو عن الاعتداءات الماضية من الذين يشعرون بالندم ولا يرغبون بعودتها. أمّا من يرغب في الاستمرار في عدائيته؛ فهر مخالف» أصلاً لقانون السلام .

7- **قانون عدم الانتقام:** وهو يعني أن لا ينظر البشر إلى الانتقام بوصفه وسيلة للخلاص من حالة الفوضى, بل يجب عليهم أن ينظروا إلى الخير ويتركوا الشر. ويعد الانتقام؛ بوصفه استعادة للمجد أو الإيذاء دون سبب منتج؛ مثارةٌ للحرب ومنافاة لقوانين الطبيعة .

8- **قانون عدم الاهانة:** وهو يعني أن أي إنسان يجب أن لا يعلن بفعل أو كلمة أو موقف أو حركة, ازدراءه أو كرهه تجاه الآخر وانتهاك مثل هذا القانون يعد إهانة.

9- **قانون المساواة:** وهو أن يعترف كل إنسان بالآخر على أَنَهُ مساو له بمقتضى الطبيعة؛ لأنّ البشر المتساويين يدخلون في حالة السلام بوصفهم مالكين للشروط المتساويّة بينهم لتحقيقه. وهنالك قوانين أخرى كثيرة؛ رأى هوبز أنّها تشتق وتبنى على هذه القوانين التسعة.

(تم)